

مشروع أدونيس

وصناعة المثقف النقدي

علي حسن الفواز * 

صار توصيف المثقف نوعاً من الحاجة النقدية والأنثروبولوجية، مثلما هي الحاجة لمقاربة وظيفة هذا المثقف في سياق تغاير مفهوم الوظائف، إذ أخضعت الدراسات الثقافية والدراسات السيميائية المثقف إلى ما يشبه التموضع داخل (دراسة الأنظمة التي تساعد على ادراك الأحداث والكينونات بوصفها علامات تحمل معنى).^(١) العودة إلى المعنى الذي يُنتجه المثقف شأن ثقافي، مثلما هو شأن إنساني، وأن تعالق هذه العودة بتجديد آليات إنتاج المعرفة والمادة الثقافية أصبح خياراً على التجاوز، ورهاناً على أهمية وضرورة المعرفة في تعمق المعنى (الثقافي) وأن توسّع من مدياته التشغيلية، وأسئلته التي تخص اللغة والعقل والنص والمؤسسة، وأن يملك المثقف الكفاءة في نظرتة للتاريخ، وصناعة النصوص، وتعديل أنماط التفكير بوصفها إشهاراً للحرية في التعاطي مع الوظائف الثقافية.

أدونيس إنموذج للمثقف المتسائل والشكّك، وأحد أهم صنّاع الوظيفة الثقافية، والسؤال الثقافي، السؤال الذي يلامس التاريخ والأيدولوجيا والهوية، تلك التي تتمحور حول المعنى، أو تسعى للتمرد عليه. هذه الحياة ورطته في سلسلة معقدة من المواجهات الاشكالية مع السائد، ومع المرجعيات، إذ كثير ما تحفل أطروحاته بالمغايرة الصادمة، تلك التي تستفز التفكير، وتضع الخطاب الأدبي في سياق تداول ثقافي، وهو ما يُسبب مواجهات لها علاقة بـ (نظام اللغة) واستعمالاتها، وبالممارسة الثقافية، بوصفها أدباً، أو معرفة، أو أطروحات لها علاقة بالتحول، وبالقراءة، وبالمناهج، وبالجمهور، حيث كلُّ شيءٍ يتجه للجمهور، بما فيه الجمهور الذي يخص الجماعة والملة والأمة والفكرة والسلطة..

المثقف والخروج عن المتحف..

يجد أدونيس في جدّة الأسئلة مجالاً لإعادة النظر في التاريخ، وفي فهم اشكالات الحاضر، ولمواجهة تحديات الحداثة، وهو ما يعني التمرد على المجهول الثقافي لصالح المعلوم المعرفي، وإلى التعاطي مع ماهية الثقافة من منطلق تجاوز ثباتها وحشمتها التاريخية، وتاريخها المسكون بفكرة المتحف، بما فيه متحف القصيدة، لذا هو يكتب ويجاهر بما لا يراه الكثيرون..

يظل مشروع أدونيس الشعري والفكري رهينا بهذا الخروج، وجزءاً من اشكاليته، فبقدر إثارته للكثير من الأسئلة، فإنه يحاول بشجاعة لاتشيخ أن يرمي الحجر على مزاج الجماعات، وعلى تكايا السرائر والعُصاب، لاسيما تلك التي أسهمت في إثارة أسئلة شقاوة وعينا، وعوّمت منظورنا للتاريخ/ المتحف، والتاريخ/ الاستهلاك، والتاريخ/ اللاوعي الجمعي، فضلا عن ما علق بها من أسئلة الشعر الهاجسة، والباعثة على قلق أكثر (بلاغة) يمسّ الوجود واللغة والمعنى والاستعارة والذات والجسد، وهو ما يعني إختياراً لمواضع مفارقة، تلك التي تقارب مفاهيم القراءة والتلقي والتحول والدراية والتمكين، والتي تحفز الشاعر على أن يرى العالم العربي بعينين مفتوحتين، وهو يتورط في شهوة تحوله، وفي رعب صراعاته وحروبه الخارجة عن السياق دائماً، مثلما هي مقاربتة للغة النقد، حيث أن «نقد اللغة لا يكتمل لديه إلا بلغة النقد. إن مشروع أدونيس قائم على هذين البعدين للغة. فليس لنقد اللغة من معنى إن لم تتحول هذه اللغة الجديدة بدورها إلى لغة للنقد: نقد الأفكار والقيم على السواء. وهو ما دعا أدونيس لأن يسمي نفسه بشاعر الرفض والهدم. وهذا البعد كثيراً ما وضع الثقافة العربية الحديثة في مأزق، لأنها لم تتعود، في زمنه الحديث، على الجمع بين الشعر والفكر، أو، بالأحرى، بين نقد اللغة ولغة النقد».^(٢)

هذه الاثارة ارتبطت بإشكالات وعي أدونيس لعلاقة اللغة بالحدائث والتاريخ والهوية، وبهواجس الوعي الاغترابي، ذلك الذي ورطه بالرؤيا بوصفه شاعراً رائياً، باحثاً في

الانساق المضمرة للتاريخ، فهو يحدّس بالآتي، مثلما هو يُبصّر إنهياراته الكبرى. فإذا كان قناع (مهيار) برمزيته اللغوية وهويته الغائرة يمثل مواجهة إفتراضية مع هذا التاريخ، فإن وضعه كرمز نسقي في سياق هذه المواجهة يعني الإستعانة بالشعر بوصفه شكلاً للوعي الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي لممارسة هذه الوظيفة الإشكالية، والدافع لاستبطان المزيد من الكشف والتوغل...

مهيار الدمشقي ومهيار الديلمي الشاعران والقناعان يلتقيان عند عتبة المواجهة الموحشة، وعند حيازة الرؤية التي تبيح للشاعر أن يُمارس وعيه بالرفض والاحتجاج، وأن يؤسس لهذا الرفض شرعنةً لاتقوم على الحاجة للتطهير فحسب، بل على الحاجة للتغيير أيضاً، ولإثارة الجدل، والقبول بالمواجهة وتحدياتها.. أحسب أن الشاعر محمد علي شمس الدين قد اقترب- مرةً في حديث سابق لجريدة السفير البيروتية- من مرجعيات أدونيس المهيارية، وتلمّس ما يمكن أن تثيره من أسئلة، ومن جدحات، يبدو أن الكائن الشعري أكثر حاجة إليها، لكي يعيد هيكله مواقفه لوظائف المعرفة والوعي، لاسيما تلك التي تتعلق بمواجهة خطاب التكفير المعرفي، والتكفير الهوياتي، والتكفير الطائفي والفقهي...

مهيار قد تحوّل في زمن شعري وسياسي للشاعر إلى إستعارة كبرى، مثلما كان قد تحوّل صقر قريش، والغزالي الى شفرات نسقية للتنافذ.. هذه الإستعارة لاتملك إلا أن تكون حافة لمواجهة فوبيا الخضوع للقوة، ولسطوة التحولات القهرية، أو أن تنزع عنها قميص التاريخ المليئ بالثقوب والخطأ،

لتلبس قناع البطل الإسطوري او الميثولوجي، ذلك الذي يُزيح- واهماً، أو متعالياً- الاشياء عن سياقها القدري، أو يُخرجها من متحفها وصندوقها العائلي. هذه اللعبة / المغامرة تدفع الشاعر لأن يكون عند أفق المواجهة، وعند حافة (العدو) بكل ماتعنيه هذه الصفة الماكرة، لكي يتلمس ويجسّ، ويكتشف حرارة ما يتجوهر في جسد النص، وفي مدونات الفكر، وفي نص الآخر العالق بالماضي والنوستاليجيا والبطولة والسلطة والطائفة...

الكتابة تحت هاجس المواجهة، لها مكارها ولها بطولاتها، مثلما ستجعله أكثر دافعية لانتزاع ماهو سياقي / جمعي، الى ماهو أنوي / نصوي، حدّ أن أدونيس في تلك الكتابة سيبدو وكأنه أكثر الشعراء / الكتّاب شراهة للمواجهة وقدرتها وأسئلتها، ولبعث روح (الأنوي) خارج المرآة والتاريخ والمقدس، وبتجاه الانخراط في لعبة اليومي والجدلي، وحتى الاعلامي والاستعمالي والتعليمي، والتي لايمكن أن تكون إلا داخل النص / الجسد، أو النص / الدين، أو النص / الجماعة..

أدونيس قد يكون جرحاً نرجسياً في الجسد العربي الصحراوي واللغوي، إذ يعلن (هذا) الجرح هزيمة (هذا) الجسد وتعريته، إلا أنه يمثل أيضاً (صدمة) لما يتكرس في خطابنا العربي الشعري والفكري والتاريخي والطائفي، فالرجل يتحدث بإشهار فادح عن أوهام هذا الخطاب، وأنّ أية لعبة مجازية للتورية في ذلك ستبدو الأقرب للخديعة، وبما يمنح النقد فاعلية صناعة الأسئلة، وصناعة الوعي المتحوّل، حيث يكون «العمل النقدي حفراً في أسس نظام المعنى والحقيقة

السائدة في ثقافتنا والذي يبقياها أسيرة للجهاز وبعيدة عن اكتناه ليل العالم ومحاوره البرهة التاريخية بانفتاح»^(٣).

إزاء هذه المعطيات يبدو مشروع أدونيس أكثر تمثلاً للأسئلة، وأكثر إثارة للمواجهة، لأنّ مايجري اليوم من خرابٍ عربي- شعري وسياسي وهوياتي وطائفي وتكفيري- لايمكن فصله عن عطب السؤال النقدي، مثلما هي وظيفته في تموضعنا عند حافة غامضة من الأسئلة، لاسيما تلك التي تُعنى بالمستقبل!! فما هو شكل الدولة العربية القادمة؟ وكيف ستكون ملامح الحزب أو الجماعة أو الأمة والهوية؟ وربما كيف سيكون شكل القصيدة القابلة؟ فهل سنحتاج عند صعود القطارات السريعة الى دعاة أم ثوار أم قراصنة أم جنرالات أم فقهاء أم جباة ضرائب أو جزيات؟ كلُّ هذا يجري ونحن لانملك مايمكن أن نواجه به فوبيا الانقراض، تلك التي تحدّث عنها أدونيس مرة، وباتَ يعرضها دائماً بوصفها نوعاً من أنواع الصدمات المعرفية والشعرية، إذ لا مناص من المواجهة أو الهروب، لكنّ السؤال الأكثر أنطولوجياً، كيف سنواجهه؟ ومن هو العدو الذي سنواجهه؟ هل هو الغرب الجديد بحدائثه واستعماراته واستشراقته، أم هي امريكا التي تسللت الى شبابيكنا وأسرتنا وقمصاننا؟ أم أنّ الحرب ستكون مع ذواتنا القلقة والخائفة والخائنة، وتحت يافطة شرعية تقوم على أوهام حروب الجماعات، وإذكاء شعلة (الجهاد) ضد المروق على النص والتاريخ والفرق غير الناجية؟ الحديث عن ازمة الفكر والمواجهة، تفترض حديثاً عن (الضد) وعن القوة العميقة، تلك



بدأت في كتابات أدونيس وكأنها مجاهرة بصراع بين ثقافات داخل ما يسمى بـ(الثقافة العربية) والتي فقد فيها الكثيرون متاحفهم، وأقنعتهم، وعادوا إلى الصحراء، حيث النص العاري، وحيث مركزية سلطة النقل، ليدافعوا عن أوهامهم، وعن وثائق عمرو بن كلثوم، وعن اجندات البخاري، وعن أحكام القسوة عند ابن تيمية وابن قيم الجوزية، والمودوي وغيرهم من اصحاب فكرة العودة إلى الصحراء..

خطورة النص الأدونيسي تترسخ في البطولة الاخلاقية، وفي الذهاب إلى فكرة المدينة، واصطناع النص المديني، نص التعايش والقبول بالمختلف، ورفض وهم الأمة المستبدة. هذا التبدّي ليس وهماً، إنه حاجة ومصالحة، وإنقاذ وتطهير أيضاً، لكنه يحتاج بالضرورة إلى مؤسسات وإلى رساميل ثقافية وتعليمية وإدارية، يمكنها أن تضبط إيقاع المسار، وأن تُعطي للحرب مع النفس، أو مع الآخر طعماً ولوناً، وإذا لم ندرك بان الحرب القادمة ستكون حرب هذه المواجهات الثقافية، فإننا سنكون كمن يساعد اللص على سرقة بيته، وتعريفه بالممرات السرية لغرف النوم والمكتبة والخزنة العائلية!!

هناك الكثير من الأدونيسيات في نسقنا المضمّر، لكنها خائفة، أو عرضة للاغتيال الرمزي والمادي، ومهارة أدونيس الشاعر والمثقف النقدي تمثلتها جرأته في أن يكون البطل / الضحية / الداعي والمحرّض على نزع الاقنعة، بما فيها الأقنعة الشعرية، رغم تاريخه الطويل معها، فهو كان شجاعاً في التخلّي عن اقنعة مهيار وصقر قريش والغزالي وغيرها ليكون أمام لعبة مرعبة في التعرية، تعرية

الوجوه والقيم والثقافات والأفكار، ولا يمكن لأحد الآن من الاختباء خلف الحائط أو المقدس أو التاريخ، والذين يمارسون الاختباء هم قتلة ومجرمون وتكفيريون و(مشعلو حرائق) كما يسميهم دورينمات..

موضعة أدونيس المثقف في سياق المواجهة- بعيداً عن فحولات عبد الله الغذامي- هي تعبيرٌ عن الحاجة لوعي حاد وجارح، لاستفزاز العقل العربي (المستقيل) الذي وضعه محمد عابد الجابري في سياق مشوه عن الهرمسيات الطائفية، وإختار له توصيفاً يفتقر للعلمية والموضوعية والدقة التاريخية، وبإتجاه وضع هذا العقل على الطاولة لغرض إعادة فحص مقولاته ومفاهيمه، وتعريضه لما يشبه الهزّة الحداثية، تلك التي مازلنا نحتاج إلى الكثير من جرعاتها، وربما الكثير من شجاعة أدونيس الذي قال منذ سنوات باننا مهددون، وان لم نعمل على مواجهة التهديد فسنكون عرضة للانقراض كما قال أدونيس..

١_ د. ميجان الرويلي- د. سعيد البازعي / دليل الناقد الأدبي / المركز الثقافي العربي / الدار البيضاء- بيروت / ٢٠٠٠ ط ٢ ص ١١٤.

٢_ محمد بنيس / أدونيس بين نقد اللغة ولغة النقد / جريدة القدس العربي / في ٣ / ٤ / ٢٠١٣.

٣_ الحوار المتمدن / العدد: ٣٥٧٩- في ١٧ / ١٢ / ٢٠١١.